الدرس الثالث عشر/ بوابة الذكريات: لآسيا جبار

ذاكرة الجسد: لأحلام مستغانمي

أولا/ رواية بوابة الذكريات/ لآسيا جبار:

1- التعريف بالكاتبة: ولدت الكاتبة(فاطمة الزهراء إيمالاين) الشهيرة باسم(**آسيا جبار**) في(أولاد حمو) بالقرب من عين بسام ولاية البويرة، في(30جوان1936)، كانت أول امرأة تنتسب إلى دار المعلمين في باريس، كما أنّها أول سيدة تعمل أستاذة جامعية في الجزائر، وأيضا أول سيدة عربية تفوز بجائزة السلام التي تمنحها جمعية الناشرين في ألمانيا(عام 2002). لكن في الفترة الانتقالية ما بعد الاستعمار، أثيرت مسألة لغة التعليم في الجزائر، فكان القرار فرض التعليم باللغة العربية، فقررت الكاتبة مغادرة الجزائر المستقلة (عام1965). ترأست الدراسات الفرنسية والفرانكفونية في جامعة لويزيانا بالولايات المتحدة الأمريكية، كما تمّ انتخابها عضوا في الأكاديمية الملكية للغة الفرنسية وآدابها في بلجيكا،وعملت كبروفيسور للأدب الفرانكفوني في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، وتعدّ(آسيا جبار) أول أديبة عربية يتم ترشيحها لنيل جائزة نوبل للأدب في (عام 2009) عن مجمل أعمالها. وتوفيت الكاتبة(**آسيا جبار**) في(06 فيفري2015) بالعاصمة الفرنسية باريس عن عمر يناهز(79 سنة)، وقد أوصت أن تدفن بالجزائر، وهذا ما حدث بالفعل.

2/ من أبرز أعمال آسيا جبار:

* في عام 1987، فيلم تسجيلي بعنوان (الزردة وأغاني النسيان).

* في عام 1977، فيلم روائي بعنوان (نوبة نساء جبل شنوة).

* رواية : ظل السلطانة * رواية : نساء الجزائر. * رواية : لا مكان في بيت أبي.

* رواية : الجزائر البيضاء. * رواية : ليالي ستراستبورغ. * رواية : بوابة الذكريات.

3 ــ ملخص رواية/ بوابة الذكريات:

هي رواية عن عالم المرأة وما تعيشه من قهر أسري واجتماعي، وهي حكي استرجاعي لحياة الساردة ويمكن عدّ الرواية سيرة ذاتية للكاتبة، هي سرد للأنا يتأرجح بين الخضوع للتقاليد والتمرد رغبة في التخلص من السلطة الذكورية التي تحرمها وتمنعها من الحرية.

تبدأ الساردة في سرد الأحداث وهي طفلة ذات ثلاث سنوات، ظلت عالقة في ذهنها كحادثة ركوب الدراجة كشف ساقيها، أين ثارت ثائرة الأب، تعود بها الذاكرة إلى الأيام المدرسية وإلى المدرسة الداخلية بباريس، وهذه الأخيرة كانت بمثابة عالم للحرية، خارج البيت والسلطة الأبوية، أين وجدت كامل الحرية.

كانت الرواية متنفسًا للكاتبة لطرح مجموعة من الأسئلة، الغرض منها الإعلان عن الحرية والتحدي والصمود تقول:<<بالكاد بدأت أفهم أن أخطر الأمور هو صمتي، صمتي عن هذه الغريزة التي كانت رغمًا عني وفيّ كانت في طور الإعداد>>.

1/البـوح الأنثـوي: ينهض العنوان بمهمة تقديم عالم المرأة عبر البوح الأنثوي الذي تمارسه الشخصية للإفصاح عن معاناتها وهمومها داخل الرواية التي<<تعدّ النوع الأدبي الذي مارسته الكاتبة العربية بحماس كبير، إذْ جعلت منه نافذة للبوح لهمومها منتقدة الآخر المتمثل غالبا في شخص الرجل الذي يحيل إلى سلطة ذكورية أبوية قمعية>>. وما تكتبه المرأة الكاتبة من أحداث تمس المرأة، وهمومها وانشغالاتها، هو ضمن البوح الأنثوي الذاتي،ذلك باعتبار<<إن أي عمل تقوم به الرأة، ما هو في العرف الثقافي السائد دليل على جنس النساء عامة. والهجس الذي تهجس به إحداهن هو بالتالي هاجس نسوي وليس هاجسا ذاتيا فرديا. ومازالت المرأة محتاجة و مضطرة لأن تتكلم باسم كل النساء وليس باسمها وحدها فحسب>>. فالكتابة النسوية محظورة وغير مقروءة، نتيجة العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الجزائري.

2/ جسد الأنثى عورة: عبر النماذج تؤكد البطلة سرديًا أنّ جنس الأنثى يحمل قيمة سلبية ومشوهة داخل المجتمع، ما يجعل المرأة تحمل تلك القيم عن جنسها منذ الصغر وتمارسها، ويعدّ الجسد الأنثوي في مجتمعنا العربي عورة حتى وهو غض في مرحلة الطفولة. يطلعنا السرد على البطلة وهي صغيرة ذات الربع سنوات أو خمس تلعب لأول مرة بدراجة ابن جارهم، تقول فيه:<<ظل عالقًا في ذهني كحرقة، وهو بمثابة لوثة في صورة الأب المثالية، أخذت أشيدها رغمًا عنّي لأنّه غائب غيابًا مبرمًا>>. وبذلك لقد انتهت طفولتها بمنعها من أمور كثيرة، دون إدراك معين لذلك. يناديها الأب بصوت حاد إلى المنزل وهناك يصرخ بوجه أمها<<لا أريد، كلا لا أريد، كَرّرها عاليًا لأمي التي هرعت صامتة هي الأخرى، لا أريد أن تظهر ابنتي ساقيها وهي تركب الدراجة>>. ربما كان هذا أول مشهد يثير مشكلة جنسها الأنثوي وجسدها الذي يجب أن يغطى فهو من المحظورات والمحرمات لكن لم تع ذلك الموقف مع أبيها:<<خيل

لي أنّ أبي أجبر على شيء غامض فجأة.. وقد بات أكيداً أن أبي قد أمسى شخصًا آخر>>.

بدأت الفتاة تدرك أنّ جسدها مشكلة داخل المجتمع في تعليق من(جدتها) لما قالت بشيء من الندم والأسف(بأنّ عيونها كبيرة) في إشارة إلى الخوف من أن تجلب لهم العار، وهو أمر كذلك رأت فيه الأم الخطر وأنها:<< الفتاة الواجب مراقبتها لاحقًا، كأنّها(أمها) بفراستها هذه قد أدركت بأَنِّي سأكون ذات طبيعة عصية على التصنيف>>. هذا(**الجسدالأنثوي**) أصبح محطة أنظار من قبل الرجال، حتى الرجال الأوروبيين يتمنون رؤية هذا الجسد، جسد المرأة الجزائرية تحت الحايك<<وهكذا راح خيال كل ذكر فرنسي بالقرية يزداد اتقادا>>.

3/ **المدرسة/ الحرية خارج جدران البيت:** وفي المدرسة(ذات النظام الداخلي) تتحرر نسبيًا، فلم تعد تحت الرقابة السرية أو الاجتماعية، وهناك لا تشعر بنفسها معتقلة، وتشترك معها في ذلك الشعور قريناتها من الطالبات العربيات طالما لم يعدن، مثلما في البيت<< تحت رقابة حارس حريم متغطرس>>. وفي المدرسة، تمارس بعض المحظورات وتنتهك بعض مسلمات العائلة والمجتمع، من خلالها تحس بالحرية، فتذهب كل صباح سبت دون علم عائلتها إلى السنيما لمشاهدة أفلام الواسترن، وأحيانًا ينتابها الشعور بتأنيب الضمير وهي تخترق المحظور، وخوفًا من والدها لو عَلِمَ بأمرها.

وتعدُّ رواية(بوابة الذكريات) بمثابة تجربة شخصية تخوض في أعماق (الأنا) لكل فتاة عربية راغبة في التحضر والتطلع إلى الثقافات الجديدة، وكسر.. الصمت، ولكنها في نفس الوقت تحاول الاحتفاظ بالعادات والتقاليد التي نشأت عليها.

ثانيـــا/ روايــة ذاكـرة الجســد/ لأحـلام مستغـانمي:

1/التعريـف بالكـاتبـــة: ولدت أحلام مستغانمي سنة(1953) في **تونس** إبان الثورة التحريرية. وبعد الاستقلال عادت الأسرة إلى الوطن واستقرت في الجزائر العاصمة، درست(أحلام مستغانمي) مع أول فوج للبنات يتابع تعليمه في مدرسة الثعالبية المعربة بالعاصمة، وانتقلت منها إلى ثانوية عائشة أم المؤمنين. لتتخرج سنة(1971) من كلية الآداب واللغة العربية في الجزائر العاصمة، ضمن أول دفعة معربة تتخرج بعد الاستقلال من جامعات الجزائر.

2/ مؤلفـاتهـــــا: كتبت فأمتعت القراء، وأصبحت كتبها من أكثر الكتب مبيعًا في العالم العربي والجدير بالذكر أنّ رواية (ذاكرة الجسد) هي الرواية الأولى من ثلاثية(أحلام مستغانمي)، وتتكون

الثلاثية من: ذاكرة الجسد(1993)، فوضى الحواس(1997)، عابر سرير(2003) ورواية الأسود يليق بك عام(2012). ومن إصداراتها الشعرية، ديوان بعنوان: على مرفأ الأيام عام(1972) وديوان بعنوان: عليك اللهفة عام(2014). كما صدر لها: الجزائر، المرأة والكتابة(1985) كتاب: نسيان.كوم(2009).

3/ ملخص رواية/ ذاكرة الجسد: تدور أحداث الرواية بين البطل(خالد وحياة) وبالضبط بعد عودته للوطن لدفن أخيه الذي أصابته رصاصة في أحداث أكتوبر(1988)، ويعود بذكرياته إلى أيام الثورة، أين كان مجاهدا وبترت يده بعد إصابته في المعركة وتغيير مسرى حياته وإلى صداقته مع (سي الطاهر) قائده في الثورة ووالد حياة. إنّ عودة(خالد) إلى أرض الوطن جعلته يقف على مفارقات عديدة استعرض خلالها خيباته المتكررة في رجالات الوطن. وينهض المتخيل السردي لرواية (ذاكرة الجسد) على قيمة الوطن بالدرجة الأولى، وهي القائلة(من ينتقد حبيبًا يكتب شعرا، ومن يفقد وطنًا يكتب رواية)، فهو الموضوع المهيمن، وقُدِّم عبر ثلاثة محاور(الثورة ـ ما بعد الاستقلال ـ الإرهاب) مشكلة الأسئلة السردية للمحكي الروائي.

أـ محور الثورة: يتسم طرح قيمة الثورة التحريرية عند الروائية بالوعي التاريخي في نقدها، تحضر الثورة انطلاقا من عنوان الرواية(ذاكرة الجسد) والذاكرة يحملها البطل الراوي **"خالد"** وشْمًا على جسده << كنت تحمل ذاكرتك على جسدك.>> يرحل إلى الماضي ويستنطق ذاكرته ليكون التاريخ شاهدا على انحراف الحاضر، فالجسد بذراع مبتورة علامة تختصر تاريخًا نضاليًا من حياة البطل، ومرحلة هامة من تاريخ الجزائر في مواجهة الاستعمار، وأول موعد خطّه القدر مع الذاكرة (الذاكرة/الثورة)، كان في معرض الرسم في باريس، حين التقى(خالد) البطل أول مرة بأحلام/ حياة، التي لم تكن إلا ابنة الشهيد (سي الطاهر)،هنا تبدأ حياة أخرى لـ(خالد) يستذكر فيها ماضيًا طواه منذ غادر الجزائر أيام الثورة وأحداثها التاريخية. فرجع بذاكرته إلى فترة اعتقاله في سجن الكديا إثر مظاهرات(8 ماي 1945) أين كان اللقاء بين كثير من السجناء ومنهم(سي الطاهر) بزنزانات تضيق بعدد كبير منهم. وقد كان **"خالد"** أحد هؤلاء. انضم **"خالد"**(سنة1955) إلى صفوف الثورة التحريرية، وفي أحد المعارك تغيرت حياته بعد أن اخترقت رصاصة ذراعه الأيسر، ينتقل بعدها إلى تونس للعلاج، فتبتر ذراعه، ثم يغادر إلى فرنسا أين تأخذ حياته منحى آخر.

ب ـ محور ما بعد الاستقلال: حاولت الرواية الوقوف على مسببات الأزمة، تقول الكاتبة(أحلام مستغانمي) على لسان السارد: **"خالد"** حينما عاد إلى الجزائر بعد الاستقلال رغبة في بناء الوطن وتشييده:<<عندما عدت إلى الجزائر بعدها، ولأنّ الكلمات ليست محايدة، فقد كنت ممتلئًا كذلك بالمثل

والقيم ورغبة في تَغَيّر العقليات والقيام بثورة داخل العقل الجزائري الذي لم تُغَيّر فيه الهزات التاريخية شيئا، ولم يكن ولم يكن الوقت مناسبًا لحلمي الكبير الذي لا أريد أن أسميه(الثورة الثقافية)، فقد بدأت التغيرات بالمصانع والقرى الفلاحية والمباني والمنشآت الضخمة، وتُرِك الإنسان إلى الأخير ،فكيف يمكن لإنسان.. ذي عقلية متخلفة عن العالم بعشرات السنين أن يبني وطنًا، أو يقوم بأية ثورة، صناعية أو زراعية أو أية ثورة أخرى؟ لقد بدأت كل الثورات الصناعية في العالم من الإنسان نفسه، ولذلك أصبح اليابان يابانًا، وأصبحت أوروبا ما هي عليه اليوم، وحدهم العرب راحوا يبنون المباني ويسمّون الجدران ثورة، ويأخذون الأرض من هذا ويعطونها لذلك ويسمي هذا ثورة.. الثورة عندما يصل المواطن إلى مستوى الآلة التي يسرها>>. ويمثل المقطع نقدًا للاختيارات السياسية بعد الاستقلال ومدى مغالاتها في الاهتمام بالقضايا التنموية والاقتصادية على حساب الفرد الجزائري الذي خرج لتوه من حرب عانى خلالها الفقر والجهل والأمية والتخلف.. لقد انشغلت السلطة بالمادة والثروات وتوزيعها، ونسيت الفرد وروحه وعطاءه، فما أتعس أن يعيش الإنسان أزمات و روحه مكبلة ومقيدَة، ومحاصرة.

ويسعى السرد عبر الحكي واستحضار الذاكرة إلى تعرية زمن الاستقلال الطافح بتناقضاته، حين يتحول الوطن إلى سجن قهري ومذل للمجاهد(خالد) سنة(1971)، حين يزج به في السجن ويهان ويذل ويطعن في كرامته باسم الثورة:<< الوطن الذي أصبح سجنًا لا عنوان معروفًا لزنزانته، لا اسم رسميا لسجنه.. والذي أصْبَحتُ أُقَاد إليه فجرًا، معصوب العينين محاطًا بمجهولين، يقوداننني إلى وجهة مجهولة أيضا.. هل توقعت يوم كنت شابًا بحماسته وعنفوانه وتطرف أحلامه أنّه سيأتي بعد ربع قرن، يوم عجيب كهذا يجرد فيه جزائري مثلي من ثيابي.. ليزج بي في زنزانة فردية هذه المرة، زنزانة أدخلها باسم الثورة هذه المرة...>>. ولتعرية الوضع أكثر تتخذ الكاتبة من البطلة(حياة) رمزا للوطن المغتصب، وذلك حين تتطرق إلى عرسها مع أحد العسكريين الفاسدين"سي..." والثوري رمز السلطة الفاسدة، والمغتصب للوطن بأحقيته الثورية في امتلاك كل شيء تحت غطاء الشرعية الثورية. وتنتقد الكاتبة عن طريق السارد المجاهد(خال) السلطة ذات الحزب الواحد التي تمثلها هذه الفئة،في دكتاتوريتها وسيطرتها المطلقة ونهبها لخيرات البلاد باسم الثورة.

وتلقي الصيغة الانفعالية للشخصية الساردة بثقلها على بنية النص من خلال المعاني التي تشكل محمولات الشخصيات الانتهازية لأصحاب الفخامة من رجال السلطة الذين حضروا العرس<<هَا هُم هنا، كانوا هنا جميعهم.. كالعادة أصحاب البطون المنتفخة.. والسجائر الكوبية.. والبدلات التي تلبس على أكثر من وجه..أصحاب الحقائب الدبلوماسية أصحاب المهمات المشبوهة..وأصحاب الماضي المجهول

ها هم هنا.. وزراء سابقون.. سراق سابقون.. مديرون وصوليون.. مخبرون سابقون.. وعسكريون متنكرون في ثياب وزارية.. ها هم هنا أصحاب النظريات والكسب السريع، أصحاب العقول الفارغة والفيلات الشاهقة.. ها هم هنا مجتمعون دائما كأسماك القرش، ملتفون دائما حول الولائم المشبوهة أعرفهم وأتجاهل معظمهم>>.

ج ـ محور الأزمة الوطنية(الإرهاب): حاولت الروايات التي تناولت هذه الأزمة رصد أهم التحولات والأحداث والوقائع التي شهدتها الجزائر متسلحة بالسرد، وقد كانت مظاهرات أكتوبر(1988) أهم محطة تاريخية ومنعرج خطير يرتبط بتحول الجزائر، تقول الروائية:<<25 اكتوبر 1988 عناوين كبرى.. كثير من الحبر الأسود، كثير من الدم وقليل من الحياء>>. وبدأت الفوضى تعمُّ الأوساط السياسية والاجتماعية جراء امتداد المظاهرات إلى الشوارع بانتفاضة شعبية ضد السلطة لتأذن ببداية مرحلة جديدة دامية سيشهدها المجتمع الجزائري، بإراقة الدماء في الشوارع، واندلاع الحرائق في كل مكان، وتقابل السلطة المتظاهرين بالقمع من قبل أجهزتها وتمارس عليهم البطش والاعتقال والقتل والتعذيب بصنوفه فتهدر القيم الإنسانية، سلطة تقاتل شعبها بحجة حماية الوطن من هذه الانزلاقات، قد تؤدي به إلى الهاوية. واشتعلت الأزمة الوطنية وجرّت البلاد إلى هاوية دامت أكثر من عشر سنوات ولازالت تبعاتها إلى الآن. كل ذلك ترجعه الكاتبة(أحلام مستغانمي) إلى فساد السلطة وقمعها القائم على الإقصاء والعنف وكبح للحرية، سلطة تريد من كل الشعب الانخراط والانصياع للنظام الواحد الذي لا يقبل مجالا لحرية الكلام والتظاهر، لأنّه يعدّ عملا ضد مصلحة الوطن، والويل لمن يتجرأ، فالدولة تقف رقيبًا على المجتمع المدني. وتلك هي صورة الوطن التي قدمتها الرواية، فدال الوطن في وعي السارد مؤثث بدال الزيف والخيانة والفساد والانتهازية و الاستغلال والعنف والقتل والدم والفاجعة السرداوية.